مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2010، المجلد 12، العدد1 ص 201-238

نثريات الطبيعة في ديوان الشاعر القروي دراسة موضوعية

علي عبدالله عمرو

كلية الآداب - قسم اللغة العربية
جامعة الخليل – الخليل

تاريخ الاستلام 2009/8/30 تاريخ القبول 2010/1/5

الملخص: تعددت مواقف القروي تجاه الطبيعة في ديوانه الذي تمت معالجته في هذا البحث، وجاء في مباحث أربعة معبّرة عن بعض تلك المواقف، ففي المبحث الأول حول باب (البواكير) من الديوان، وجدته يستخدم الطبيعة لذات الطبيعة، يحاول إظهار محاسنها لعيون النظّار، كما لمحت قلب القروي – في هذا المبحث – يرجف عند المواقف الصعبة التي تمر بها عناصر الطبيعة، فرأيته يتألم أشد الألم لذلك البلبل الذي جاءه يطلب ملجأً في ليلة برد وثلج، كما وجدته يبدي سخطه على البشر الذين لا يحسّون بجمال الطبيعة وأشجارها، ولا يريدون العيش إلا لأنفسهم، وهذا الإحساس الصادق بالطبيعة لم يأت للشاعر من حياته في البرازيل، إنما يشده إلى ربى لبنان وخمائلها التي حرم منها في شبابه.

وجاءت الطبيعة في المبحث الثاني (زوايا الشباب) موظّفة لشخصية واحدة وهي شخصية (لمياء) حبيبة الشاعر التي أفرد لها

Abstract : There were several positions by Al-Qarawi concerning nature in his collection of poetry which was dealt with in this research. This research consists of four sections which express some of these positions. Thus in the first section about Al-Bawakir (early beginnings) section of the collection of poetry, he uses nature for nature itself. He attempts to shoe its merits for the eyes of the beholders. In this section also the heart of Al-Qarawi trembles at the difficult situations in which the elements of nature go through. Thus he suffers the severest of pain for that nightingale who seeks a refuge in a cold and snowy night. He also displays his dissatisfaction with human beings who do not sense the beauty of nature and its trees and who want to live for themselves only. This true sense for nature dis not come to the poet from his life in Brazil., but it pulls him to the hills and beautiful gardens of Lebanon which he was deprived of in his youth.

Nature in the second section Zawaya Al-Shabab (Corners of the Youth) was employed for one character which is the character of Lamia' the poet's beloved for whom the poet devoted

القصائد المتعددة، وبما أنني اعتمدت في هذا البحث على أن تكون الطبيعة مشتملة علـــى البشر أيضاً، فعنـــدها أســـتطيع القـــول أن الطبيعة في هذا الباب وظّفت لخدمة عنصر واحد من عناصرها وهو فتاة جعل الـــشاعر منها أسطورة أو فتاة سحرية لا مثيل لها في الوجود.

وفي المبحث الثالث (الموجـــات القـــصيرة) جاءت الطبيعة مستخدمةً بعد تأمل وإمعـــان، فقد أعطت الشاعر صفة الحكيم، وأنطقتـــه بالحكمة، فنظر إلى بعض العناصر الطبيعية وشاهد فيها غير ما يشاهده الإنسان العادي، ورأى في حبة القمح إيثاراً وكرما، وحوض الماء عنواناً لطبيعة النفس الإنسانية، ونظـــر إلى الزهرة وغيرها واستخلص العبر.

أما في المبحث الأخيـــر (الأزاهيـــر) فـــلا أستطيع القول إن الشاعر وظّف الطبيعة أو استخدمها فيه بغزارة، علمـــاً أنهـــا جـــاءت غزيرة، إلا أنني أقول إنه وصف الطبيعـــة وأظهرها للعالم حتى يلفت النظر إليها مـــن دون توظيفها لغرض معين، وهذا هو هدف القروي الرومانسي الذي يدعو إليه.

several poems. Since I relied in this research on the fact that nature should be represented in the human beings too, then I can say that nature in this estion was employed to serve one of its elements which is a girl from whom the poet made a myth or a magical girl who is similar to none in this existence.

In the third section Al-Mawjat Al-Qasira(the short waves), nature was employed after contemplation and scrutiny. It gave the poet the characteristic of wisdom and made him speak wisdom. So he looked at some natural elements and saw in them what the common human being does not see. He saw in the grain of whaet self-sacrifice and generosity. He saw in the water basin an address for the nature of the human spirit. He looked at the flower and other things and concluded the morals.

In the last section Al-Azahir (the flowers) , I cannot say that the poet employed or used nature very much ,knowing that it came plentiful. However, I say that he described nature and showed it to the world in order to draw attention to it without employing it for a particular purpose. And this is the romantic aim of Al-Qarawi which he calls for.

الشاعر القروي

حياته:

ولد رشيد سليم الخوري – الملقب بالشاعر القروي – في قرية " البربـــارة " وهـــي إحدى القرى اللبنانية في الخامس من نيسان عام ألف وثمانمئة وسبعة وثمانين للميلاد، وقد كان أبوه – سليم بن طنوس الخوري – معلماً في بداية حياته يتنقل بين طرابلس وصافيتا وعكار، ثم ترك التعليم بعد زواجه وانصرف لتجارة التبغ والحرير، أما أمه، فهـــي تُقـــلا

أسعد بشارة الرحباني كانت – فيما يبدو – ربّة أسرة مثالية[1] ، وشبَّ رشيد في بيت فيه من إخوته من ذاق الأدب ونظم الشعر وأجاد فيه، وقد ورث الجميع كل ذلك عن أبيهم وجدّهم لأبيهم.[2]

تعلم رشيد في مدرسة قرية البربارة في مدرسة الفنون الأمريكية، ثم علّم في مدارس مختلفة في بيروت وطرابلس وسوق الغرب، حتى سن الخامسة والعشرين، نظم فيها القصائد والمقطوعات في ديوانه " الرشيديات "، حيث عبّرت عن فطرية شاعرية عميقة تتسلل إلى النفس بهدوء غامر.

أحاطت بالشاعر عدة ظروف دفعته للهجرة، فالفقر الذي عمّ البلاد، والظلم والقمع التركيّان على لبنان وشعبه، وحظر التعبير عن الرأي وأخيراً استدعاء عمه إياه إلى البرازيل –كل ذلك – جعله يفكر بالسفر وللهجرة من البلاد التي لم تعد تحنّ عليه ولم يعد له فيها بقاء، وفي ذلك يقول:

ثُـرت على الظلم وما بلغت في سنّي الرَّشَد
لو لم أهاجر ما نجا عنقي من حبل مَسَد[3]

لقد عاش شاعرنا حياة صعبة، لكنه كان قنوعا، فوهب نفسه للشعر، يعبّر فيه عن رسالته إلى العروبة جمعاء فيقول:

بعدت همتي فغصت كنوز ال أرض لما عرفت قيمة كنزي
لا أبالي شبعت أم جعت والفنْـ ـنُ شرابي وعزة النفس خبزي[4]

عاش القروي حياته دون زواج ويعلل ذلك بقوله : " كان شبابي وقفاً على إخوتي الأصاغر، فكلما كبرت سنّي كبر عقلي ولم يكبر جيبي، ولو كبر جيبي لما نفعني كُبر عقلي، ولما تعلمت ما علمته في دنياي[5] ، ولكنه كان راغباً في الزواج ويرغّب فيه، فيقول:

---

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، المقدمة ، ص (ح).
(2) زلط ، عبد الرحيم محمود : العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي ، ص 176.
(3) مكتب التدقيق اللغوي : الشاعر القروي ، الأعمال الكاملة ، ص 144.
(4) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 468.
(5) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، المقدمة ، ص (ح).

فتــزوج وأنعــم ولــد ثــم زوج واصــنع الخالــدين والخالــداتِ
لا تقطع أســباب عيــشك مثلــي بل صل الحبل بين مــاضٍ وآتِ[1]

وبعد هذه المعاناة تلقّى دعوة من الحكومة السورية عام ألف وتسعمئة وسبعة وخمسين ليعود إلى وطنه، فغادر مهجره ومكث في سوريا قليلاً ثم رجع إلى لبنان.[2]

وفي فجر السابع والعشرين من آب عام ألف وتسعمئة وأربعة وثمانين، ودّع القروي وجه الأرض والوطن ليعانق بها باطن التراب ويرتدي قميصه الترابي[3]، نَعَتْه الصحف والإذاعات لوقوفه في وجه الغاصب بلسانه وقلمه، وكذلك انهالت على أسرته التعازي من الكثيرين وعلى رأسهم الرئيس السوري حافظ الأسد، وبذلك يكون قد انتهى القروي جسدًا ونسلاً، فهو لم يتزوج، ولكنه تخلد في فكر الأمة العربية وبين صفحات الأدب.

لقبه :

إن السبب في تلقيب الشاعر بهذا اللقب (القروي) يعود إلى ما قاله الصحافي نجيــب قسطنطين حداد عنه في إحدى مقالاته في جريدة (المؤدب)، إذ كان مخالفاً له في العقيــدة الوطنية، فقال: من هو هذا القروي؟ شاعر جرن الكبّة؟ [4]

فرد عليه شاعرنا بمقال وقّعه بالقروي من دون ذكر اسمه الحقيقي، وتبنى هذا الأسم (اللقب) منذ ذلك الحين، وراح يوقع به كل ما يكتب وينظم حتى غدا له اسماً يعرف بــه أكثر مما يعرف باسمه الحقيقي.

صدى الطبيعة في شعر القروي

عاش القروي حياته الأولى في جبال لبنان وسهولها وغاباتها، كانت حياته في قريــة البربارة متوجة بكل ألوان الطبيعة، فموقع القرية على سفح جبل مطل على المتوسط، بين منابع مياه تتدفق عبر الصخور، متباينة الخرير، بين طيور مختلفــة الأشــكال والألــوان والأنغام، عاش في مناخ وطقس تغيرهما ظاهر في صور الطبيعة بين فــصل وآخــر "

---

(1) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
(2) مكتب التدقيق اللغوي : الشاعر القروي ، الأعمال الكاملة ، ص 457.
(3) صيدح، جورج: أدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص 391.
(4) المرجع نفسه ، ص 393.

فهناك شتاء عاصف، وصيف مشرق، وخريف واهن، وربيع مزهر"[1] ، ثم هاجر إلى البرازيل فوجد الغابات والشلالات أيضاً، ووجد الطقس المتقلب والطبيعة المتحولة، فكل المناظر في حياة القروي تستثير الخيال، وتبعث على التأمل، وتغرق في الوهم، ومثل هذه البيئة هي الأم التي أرضعت القروي مشاعره وأفكاره، وهي الام لشعره الذي يجسد الطبيعة ويحيا في مظاهرها.

أحس القروي بالطبيعة والموجودات، فهو ليس أخاً للإنسان وحسب، بل أخ للأشجار والأنهار والأطيار أيضاً، وابن من أبناء الطبيعة التي تحنو عليه كأم شرعية، ويشعر عندما يرتمي فوق ذراعيها وصدرها الحنون أنه يولد من جديد وتعود إليه طفولته وبراءته، فيقول:

إذا الشمس يا أم لاحت هتفتُ ... هتاف الغريب رأى الموطنا
وقلّبتُ غرتها بالبنان ... وطوّقت بالساعدين السنا
كذا كنت أعشق خوض الجداو ... ل طفلاً فهل عدت يا أم طفلا؟[2]

إن الطبيعة عند شاعر رومانسي كالقروي روحٌ تبعث في نفس متأملها حساً وشعوراً يلهمه أروع القصائد وأعذبها، وأرقّها وأصفاها، ومن هنا " يتجلى الفرق بين الوصف الخارجي للطبيعة عند الشعراء التقليديين وبين الامتزاج الكامل بعناصرها عند المحدثين[3]، وهذا ما نلاحظه عند القروي.

إنني أرى الشاعر – أحياناً – يمتد بخياله امتدادات واسعة ممتلئة برموز الطبيعة وإيحاءاتها، يعبر من خلالها عن قصة من قصص الحياة، ينظر الشاعر لأوراق الخريف فتثير خياله تلك الأوراق التي بدأت بالذبول والاصفرار بعد النضرة والاخضرار، ويبتعد نظره إلى الأمام فيتخيل القصة التي لا بد أن تمر مع كل إنسان، قصة الضعف والموت اللذين ستؤول إليهما بعد القوة والحياة، فالأوراق ستعود إلى حضن الثرى كما يعود الجسم إليه أيضاً حتى يتغذى التراب بها وتتجدد حياة أخرى، وهذا التحول المستمر يذكر الشاعر والإنسان بتلك الحقيقة القائمة على أن جميع الكائنات من تراب وإليه المآب، وفيه جوهر

([1]) داوود، أنس : الطبيعة في شعر المهجر، ص 29.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 835.
([3]) المرجع نفسه ، المقدمة ، ص (ح).

الحياة، فيقول في قصيدة (أوحشتنا قبل الأوان) مقارنا بين الشجر والإنسان:

إن تبـــك أوراق الخريـــف فإننـــا نبكي ربيـــع محاســـنٍ وذكـــاء[1]

لقد نظر القروي لهذه المحاسن من زاويتين، رأى جمالا وأعجب بها، ثم نظر إليهـــا وتأملها من الجهة المقابلة، فوجد هناك حكمة من خلق هذه العناصر وطريقة خلقها وجعلها على هذه الصورة، فقد ذهب به التأمل إلى حبة القمح التي لم تخطر على قلب شاعر آخر في طريقة خلقها، تأملها فوجدها نصفين، لماذا خلقت وكل البذور ذوات الفلقتين على هذه الصورة؟ إنه سؤال لا أعرف كيف وجد له القروي جوابا، ولكنه جواب يعبر عن نفـــس صاحبه المؤثرة القانعة، رأى أن الشق في وسط كل بذرة من هذه البذور يعني أنها نصفان لمُمْتَلِكَين، فقال في حبة القمح:

من حبة القمح اتخذ مثـــل النـــدى يا من قبضت عن النـــدى يمناكـــا
هي حبة أعطتـــك عـــشر ســـنابل لتجـــود أنـــت بحبـــة لـــسواكا
فكأنما الشق الـــذي فـــي وســـطها لك قائل : نصفي يخص أخاكـــا[2]

واستغل القروي الطبيعة – بقصد أو بغير قصد – ليعبر عن مشاعره النفسية ونزعاته القومية وآرائه وشؤون المجتمع الإنساني في قصائد عـــدة، منهـــا (الباشـــق والعـــصفور والإنسان) و (من كاشمبو إلى جبل صنّين) و (وقفة على الشاطئ) و (الثورة) و(أقحوانـــة إبّرَنجا) و (الربيع الأخير) و (البلبل الساكت) و (الدوحة الساقطة) وغيرها من القـــصائد التي ستمر معنا في صفحات آتية وسنقف عند بعض أبياتها البارزة.

إن العلاقة الواضحة بين شاعرنا والطبيعة بكل مناظرها هي علاقة مزدوجة، فأول ما يلفت نظر الشاعر جمال الطبيعة، يتمعن في محاسنها من لون وشكل ورائحة، فتنفس عنه الهموم وتشرح صدره، وبعد أن تشبع حواسه منها نجده قد غاص في أعماقها وجذورها، يتأملها ويرى مدى التشابه بينه وبينها، وقلّما نجد اختلافـــا، فالطبيعـــة عنـــده طلاســـم لا يستطيع حلّها إلا الشعراء، وهذا ما أفصح عنه في قصيدة (حضن الأم).

([1]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 497.
([2]) المرجع نفسه ، ص 766.

هذه هي العلاقة المتبادلة بين الشاعر والطبيعة، حاولت الوقوف على أهم عناصرها بصورة جزئية في هذا الفصل، أما الطبيعة كاملة فقد جعلت لها عنواناً شاملاً لكل العناصر التي تطرق إليها القروي في أشعاره، وسوف نقف عند كل عنصر من تلك العناصر في مبحث خاص.

الطبيعة في باب البواكير

جاءت الطبيعة في باب البواكير مُجَلْجِلَةً مع الرعود والعواصف، متدحرجةً مع السيول من أعالي الجبال وفي بطون الأودية، غزيرة في معانيها غزارةً الأمطار في كانون، هذا وجه الطبيعة في فصل الشتاء، أما في فصل الربيع، فجاءت معطّرة يفوح عنبرها من أبيات القصائد الندية الناعمة، لابسةً حرير الربيع وزهره، ثملةً بماء العناقيد، متأنيةً في مشيتها بين الحدائق وفي المنتزهات، امتزج صوتها بتغاريد البلابل، وفي فصل الصيف جاءت متّقدة بحرارة الشمس حيناً، متفيّئةً بظلال الأرز والصنوبر حنياً آخر، أما في آخر العام، في فصل الخريف، فجاءت يابسةً كوجه الأرض، تجود بمناديلها وخضرتها لذاك التراب الذي يوفر لها الغذاء.

وقد رأيت الطبيعة لديه متحولة، لم ينهج صاحبها نهجاً واحداً، وهذا متوقع من شاعر كالقروي، شاعر عاش حياة مليئة بالمصاعب والمصائب، بعيداً عن الوطن والأهل، يتلقى برقيات وفيات أقاربه وأصدقائه بين الفينة والأخرى، وفي الوقت نفسه كان حنوناً ، يحن إلى أمه وإخوته في لبنان، عاشقاً يعشق الغابات والاستلقاء في الروابي والحدائق، محباً رومانسياً، تارة تحس في شعره رفيف جناح الطير ونعومة ريش النعام، وتسمع فيه هديل الحمام، وترى لوحاته ملونةً بأفضل الألوان والأذواق، وتشم رائحة الفل والياسمين، وتارة تسمع تكسّر أغصان الشجر في الخريف والتطامها بوجه الأرض اليابس، فلا عجب من هذه الازدواجية.

وإذا كان قد رسم هذه اللوحات بكلماته فلا عجب أن نرى صوراً جديدة ممتازة لم تخطر على قلب شاعر آخر، لكنها لم تأت وفق نهج ثابت في هذا الباب، لأن هذا الباب –البواكير– عبارة عن منظومات متعددة الأغراض مختارة من ديوانيه (الرّشيديّات) و (القرويّات)، فلم يتّخذ قاعدة لاستخدام الطبيعة ووصفها، وذلك لا يسيء إليه، لأنه –

بالدرجة الأولى – شاعر ويقول وفق ما تمليه عليه مشاعره الصادقة.

أما طريقة معالجتي وتصنيفي لشعر الطبيعة عند القروي، فأتوقع أنها مغايرة لكل من درس أشعار الطبيعة في الأدب العربي عامة، فلم أصنفها إلى طبيعة متحركة أو صامته أو غير ذلك مما وجدت الآخرين قد لجأوا إليه في التصنيف، بل تعاملت مع كل باب من أبواب الديوان على حدة كمبحث مستقل، وصنّفت الطبيعة من الأعلى إلى الأسفل حسب علاقة عناصر الطبيعة بعضها ببعض.

إن أول ما أبدأ به في كل مبحث هو الطبيعة الجوية، فأبدأ بالشمس ثم أنزل للقمر والنجوم والرياح والنسائم، ثم أنزل تدريجياً إلى الطيور والطبيعة الحيوانية والنباتية والبشرية على وجه الأرض، متنقلاً في الأرتفاع والإنخفاض تنقلاً بطيئاً وليس مفاجئاً، مشيراً إلى كيفية انتقال القروي من عنصر لآخر، وآخر ما أصل إليه هو البحر أو المحيط وما يعوم فيه ويغوص في أعماقه، وبهذا جاءت دراستي في أبواب الديوان كأنها دراسة في قصيدة واحدة قائمة على عدة عناصر، جميعها محتواة في الطبيعة، وهذا ما رأيته مناسباً للقارئ، فلا تكون الدراسة قائمة فقط على إحصاء العناصر الطبيعية وتعدادها وبذلك تكون جافة مملة.

إذا نظرنا إلى السماء في هذا الباب، فإن أول ما يلفت النظر هي تلك الشعلة المتوهجة، تستهويها الشمس بجمالها وروعة أشعتها الندية، فلا تظهر لنا إلا بثوب ساحر، يرغبه جميع الناس، أشعتها ممزوجة بالندى فيقول:

طلعت على الأكوان في ... دست العُلا متربعة
ولها جمال رائع ... سبحان من قد ابدعه
عكست سناها بركة ... بندى الغمائم مترعة[1]

يراها تبدو من خلف الغيوم، فيشبهها بالروح البريئة في نفس صاحبها المتهم، تمنح الجبل الأشم أشعّتها كأنها تغازله بنظراتها، والبحر عند أقدام ذلك الجبل رابض كأنه يستهزئ به بما ترميه عليه الشمس من غرام ، يقول:

([1]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 41.

والشمس من خلف الغيــوم كأنهــا معنى البراءة في ضــمير المــتهم
ترمي إلى شــيخ الجبــال بنظــرة سل عن معانيهــا فــؤاد المغــرم
والبحر يضحك عند أخمصه كمــا هزئ العظــيم بخفــة المــتعظم[1]

إنني أرى شاعرنا ينظر للشمس نظرة المحب، فهو لا يظهرها مُحرقة، بــل تعطينــا أشعتها مُغذاةً بندى الغيوم، أشعةً رطبة ذات فائدة، تتغذى بها الورود ولا تيبس.

وعندما يريد أن ينعطف إلى غير الشمس، لا ينعطف مباشرة، بل يتحول تدريجياً كما يتحول وجه الأرض في الفصول المختلفة، ينزل من الشمس قليلاً حتى يصل إلى القمــر، وهذا طبيعي، فلا بد لأي مولع بالطبيعة –إذا شاهد الشمس– أن يتذكر القمــر وينتظــره، والقمر رمز الحبيب، وهو عند القروي رمز لتلك الحبيبة التي قضى العمر وفيّا لها، لتلك العروس الشرقية، للبنان، الجنة الخضراء، فيقول:

أيا كوكبــاً فــي ســماء الــسعود يتيــه علــى النيّــرات اختيــالا
إذا مــا تنقلــت بــين البــروج ففي جو لبنــان حــطّ الرحــالا[2]

وعندما يرى الهلال في ليلة من ليالي الخريف، يراه يعترض خط كوكــب الزهــرة فيظهر وإياها متعانقين، ولكن وصف الشاعر لهذا المشهد جاء منحازاً للزهرة، ويحط من قيمة القمر، إذ إنه – القمر– لا يصلح أن يكون خاتماً أو سواراً للزهرة، بل هو خلخــال لرجلها لأنه لا يملك من الجمال ما يجمّل به خنصر أو معصم الحبيبة، إلا أن حب الشاعر للقمر يبقى ظاهراً في الأبيات، لأنه يشبهه في البداية بغصن الزمرد المثمر، وهذا تــشبيه جميل للقمر مقابل تشبيه الزهرة بتفاحة من عسجد، يقول:

وقعتْ عليــه فــشابهتْ قلبــي إذا أغْرزتُ فيه من اللواحظ خنجــرا
فكأنهــا تفاحــة مــن عــسجدٍ وكأنــه غــصن الزمــرد مثمِــرا
فلو استدار لكــان يــصلح خاتمــاً لك أو سواراً بــالنجوم مجــوهرا

(1) المرجع نفسه ، ص 36.
(2) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 53.

بل كان خلخالا لرجلك فهــو مــا حلّى لمثلك معصما أو خنــصرا[1]

فالقمر أدنى مرتبة من تزيين الزهرة، إذ هي أحلى وأجمل من أن تتــزين بــالخواتيم والأساور، وبما أننا ما زلنا في السماء، قريبين من الشمس والقمر والزهرة، فإن الــشاعر يعرّفنا على طقس البرازيل بأنه طقسٌ متقلب بين لحظة وأخرى وذلك يظهر فــي قولــه مشبهاً القلوب بهذا الطقس:

وبعــض القلــوب كطقــس البرازيــــ ـــل فــي كــل ثانيــة يتقلّــب[2]

ويوضح الطقس والمناخ في فصل الشتاء الذي طال فيه غياب الشمس، حيث ذبلــت الورود وذهبت حمرتها، فبعث منظرها الأسى في النفوس، يقول:

تتـــشكّى لـــي الـــورود كلمـــا عـــدتُها ضـــحى
ذهبـــتْ حمـــرة الخـــدود مـــا علـــى الجـــو لـــو صـــحا
منظـــر الزهـــر فـــي ذبـــول منظـــر يبعـــث الأســـى[3]

ثم يأتي الربيع بعد طول انتظار، يكسو البلاد بحلة خضراء كما كسا الأشجار وألبسها حلة جديدة بمناسبة عيد ميلادها السنوي، ألبسها ثوباً مزركشاً بكل الألوان، يقول:

عاد الربيع إلى الربــوع فجــددي عهـــدالهوى كـــشبابه المتجـــدد
وكــسا بــسُندُسه المــروج كأنــه بنت العــذار بــصحن خــد الأمــرد
والروض ألبس كل غــصن حلــةً خضراء زركشها الضحى بالعــسجد[4]

وعندما يقترب – في نزوله – من الأرض، يصف الطبيعة عامــة، عذوبــة الغــدير وجمال الزهور وشدو الطيور الذي يزيل الهموم، والجبال والمرابع ومــا لــه بهــا مــن مواقف، وضوء الشمس عليها يظهر ويختفي حسبما تزيح الرياح الغيوم، يصف الريــاض الفواحة بعطرها، المتربعة بأغصانها، فيقول:

([1]) المرجع نفسه ، ص 169.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 78.
([3]) المرجع نفسه ، ص 219.
([4]) المرجع نفسه ، ص 150.

لله ذاك الغـــــــديرا مـــــــا أعـــــــذبا
لله تلـــــك الزهـــــور مـــــــا أطيبـــــــا
لله تلـــــك الطيـــــور مـــــــا أطربـــــــا
من كل شـــادٍ عجيـــب ينفـــــــي الـــــــشجن
فـــي شـــدوه للقلـــوب ســـــــلوى ومَـــــــنْ
كم لي بتلـــك الـــسفوح مـــــــن موقـــــــفٍ
والشمس طـــوراً تلـــوح أو تختفـــــــــــــي
في ظل روض يفـــوح بالمُـــــــــــــضْعَفِ
أو تحت غصنٍ رضيب حلـــــــو التّـــــــثنّ
غنـــى بـــه العنـــدليب فـــــــوق الفـــــــنن[1]

هذه هي الطبيعة يلخصها الشاعر في هذه الأبيات، وهذه المناظر التي منحنـــا إياهـــا الخالق ليس بعدها مناظر، فالعدل في أنه جعل للغدران صفة العذوبة، وللزهور الرائحـــة الطيبة، وللطيور الصوت الطروب، ويبين لنا الشاعر عدلاً آخر للطبيعة في قوله:

عدل الطبيعة رحمـــة والظلـــم أن جـــادت كـــف بـــست أصـــابع
في الدمع مخـــصبةٌ لقلـــبٍ ماحـــلٍ لا تحزننّ لكـــل طـــرف دامـــع[2]

لقد صدق القروي في فكرته، فالجمال واللطف في الكف أن تكون بخمس أصابع، وكم كانت نظرة الناس ساخرة لذي الكف بست أصابع.

أما الأرض فتتزين بطيورها، فلماذا تحبس الطيور؟ وشاعرنا لا يريد للعـــصفور أن يحبس ويبقى في القفص، فيصفه بأنه طير ذبيح يرقص في ضـــلوع الـــشاعر وصـــدره، تشبيهاً لهذا العصفور الذي يبقى يرفرف بجناحيه رغم كونه حبيساً ، فيقول:

كأنمـــا أنـــت بـــصدر القفـــص مـــصطفق الجـــانح لا تـــستريح

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 84.
(2) المرجع نفسه ، ص 107.

طير ذبيح في ضـــلوعي رقـــص وما انتهى بعد عـــذاب الـــذبيح[1]

وكذلك البحر يتزين بطيوره البيضاء التي تحلق في أسراب طالبةً الرزق، كأنها أعلامُ سلامٍ على سفينة ترفرف كرفرفة الأعلام، وشبهها بأعلام السلام لبـشابهها فـي اللـون الأبيض، يقول:

بـــــيضٌ كـــــأعلام الـــــسلا م علـــــى الـــــسفينة تخفـــــق
طـــــوراً تـــــسف وتـــــارةً يحلـــــو لهـــــا فتُحلّـــــقُ
ســـربٌ يـــرود الـــرزق مـــن كـــفّ الـــسلام فيـــرزق
ليـــست كعاقلـــة الطيـــو ر إذا دهـــت تتـــسرّق[2]

وهذه الطيور لا تسرق طعامها من الناس كما تفعل بعض الطيور الأخرى، بل تطلب الطعام من صاحبه فتناله.

أما العصفور ذاته، فهو أول عازف في الفجر، وكأنما هو يعلمنا بقدوم النور، يبقـى متنقلاً بين الأغصان كالظل، فهو خطيب تلك الجداول والزهور في الحقول، وعندما ينهي خطبته تصفق له أوراق الشجر، وتهتف الغدران ، فيقول على لـسان العـصفور الـذي يخاطب إنسانا:

عند الـصباح أكـون أول منـشدٍ فأنـا بـأنوار الـصباح بـشيرُ
متنقـل بـين الغـصون كـأنني يظـلٌ مـدى النهـار يـدور
إني خطيبٌ والغـصون منـابري والـسامعون جـداولٌ وزهـورُ
فتـصفق الأوراق عنـد سـماعها صوتي ويهتف بالخرير غـديرُ[3]

ويرى القروي الطبيعة بشكل البلابل ويسمعها بتغاريدها ، إذ جاءه بلبل فـي المـساء يطلب ملجأً من البرد الذي أصبغه الشتاء على الجو، بسبب الثلج الذي قذفت بـه الـسماء أهل الأرض، فهجر البلبل حقله ورياضه، وصارت الطبيعة كلها قفراً في نظر الـشاعر

(1) المرجع نفسه ، ص 231.
(2) المرجع نفسه ، ص 206.
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 72.

والبلبل، ما دام الثلج والبرد يمنعان البلبل من المبيت في عشه ، فآواه الشاعر حتى الصباح، ثم أطلقه يتمتع في فضائه ويعود إلى رياضه وجنانه، فيقول في القصيدة التي عنونها " بالبلبل الساكت":

بلبل الروض والجناح مبلل ... خافت الصوت ساكت فتأمل
نبذته رياضه فعلل ... بحمانا عن الرياض وأمل
أن يكون الإنسان أهون شراً[1]

هذه هي الصورة التي يخلقها الشاعر للإنسان في هذا الجو، فهو أهون من الطبيعة على أبناء الطبيعة، وهذه النظرة للشاعر ربما تكون من نسيم الربيع وحنينه للام والأهل والوطن، لا من رعود الشتاء وعواصف الخريف.

ولم ينس القروي نسيم المحيط، ولكنه لا يذكره معجبا به ، بل يخاطبه على أنه ليس نسيما ولا يستحق أن يكون أسمه ضمن النسائم، وهو هنا نسيم المحيط الأطلسي شرقي البرازيل، وليس نسيم البحر الأبيض المتوسط، وهذا يدلنا على مدى الشعور الوطني عند الشاعر، ومدى شحن الذاكرة بعناصر الطبيعة اللبنانية، فهو يعرف نسيم البحر اللطيف ويقارنه مع نسيم المحيط فيقول:

يا نسيم المحيط ما هكذا في ... ساحل البحر عندنا الأنسامُ
أنت إن زرت في المنام صحيحاً ... غلغلت في عظامه الأسقامُ
مشبع بالبخار وروح ثقيل ... بارد تستعيد منك المسامُ[2]

ومتى استلقى على ظهره فوق تلك الربى الخضراء بين الزهور، وشاهد زهرة جميلة حسبها فراشة فغدا يناجي نفسه ويخاطبها، ويصف ورقة الزهرة بأنها تشبه جناح الفراشة في روعة الجمال، وهي في نعومة ملمسها أطرى وأنعم من كف الطفل الصغير، ومنظرها أبهج من منظر الصبح، وهذه الورقة أو الزهرة كلها لطيفة ونديّة، أفضل من النسيم القادم من الغدير عند الصباح، وأفضل من تغريد العصفور في الرياض، دنا منها ببطء حتى لا تطير، ولكنه وجدها زهرة ، فيقول:

---

(1) المرجع نفسه ، ص 15.
(2) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 139.

مـــا للفراشـــة لا تطيـــر	مطروحـــة بـــين الزهـــور
هـــذا الجنـــاح جناحهـــا	فـــي الحـــسن منقطـــع النظيـــر
أطـــرى وأنعـــم ملمـــساً	مـــن راحـــة الطفـــل الـــصغير
أبهـــى وأبهـــج منظـــراً	مـــن مطلـــع الـــصبح المنيـــر
أنـــدى وألطـــف مـــن نـــسيم	الفجـــر عـــن ســـطح الغـــدير
أجـــرى وألـــين مـــن مـــرور	الـــروح فـــي جـــسم الأثيـــر
وأحـــب مـــن تغريـــدة الـــ	ـــعـــصفور فـــي الـــروض النـــضير
فـــدنوت أخـــتلس الخطـــى	متر فقـــاً كـــي لا تطيـــر
وإذا الفراشـــة زهـــرة	وإذا المتـــيّم فـــي غـــرور[1]

من أين لك هذه التشابيه أيها القروي ؟ إنك فعلاً لقروي، فمن يستطيع أن يصف هذه الأوصاف من دون العيش بين النسائم والزهور؟

وفي الأبيات إشارة إلى أن القروي كان عطوفاً حنونـاً محبـاً للأطفـال ، يـداعبهم ويتحسسهم برفق وعناية، وإلا لما عرف نعومة كف الطفل، فهو – رغم عـدم زواجـه وعدم رؤية أطفال له – يحب الأطفال.

وعندما يتجوّل القروي بين الحدائق؟ يرى الزهر ضاحكاً ، والخضرة كثيفة ، والماء يترقق من الصخور ، يقول :

الزهـــرة تبـــسم للزهـــرة	والخـــضرة تعتنـــق الخـــضرة
وســـلامه ينـــشر مـــن فـــوق	الأغـــصان ولـــم يبـــرح مـــصره
والمـــاء كمـــا نـــاغى الأطفـــال	يترقـــرق مـــن قلـــب الـــصخرة
فـــاغرف بـــالراح وخـــل الـــراح	فتلـــك الجمـــرة لا الخمـــرة[2]

وإذا ذهب إلى منتزه " شتورة " فإن الورود والنسائم تستهويه، والغدران ترويه، وظلّ الشجر يؤويه، والعصافير تناجيه، فالنسائم تغني على ذرى شجر الصفصاف، والغـدران

([1]) المرجع نفسه ، ص 161.

([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 88.

تئن على جوانبها، والأوراق تصفق بحرارة ، كأن غصون الصفصاف عليها مادة لزجة علقت بها الطيور فلا تبرح ترفرف ولا تستطيع الطيران، وهذا يدل على كثرة العصافير ودوامها على هذا النوع من الشجر في ذلك المكان الجميل ، يقول :

وصفصاف صفوف كالعذارى هبطن من العلا والحور حور
إذا غنى النسيم على ذراها وأنّ على جوانبها الغدير
فللأفنان تأويد قليل وللأوراق تصفيق كثير
كأن غصونها دبق عليه عصافيرٌ ترف ولا تطير[1]

ونبقى مع الورود ، ونراه يصف زنبقة بائسة ، فيتساءل الشاعر عن سبب غياب ابتسامتها، وفي هذه الأبيات أعتقد أن الشاعر يناجي نفسه ، فالموضوع يقرب من موضوعه، فهو لم ينقض عهده مع من أحب ، ولكنه أجل الزواج ، وعندما كبرت به السن رأى أن القطار فاته فقال:

زنبقة الوادي عليك السلام يا آية اللطف وروح العفاف
أين مضى ذياك الابتسام وما لهذا الثغر يشكو الجفاف ؟
هل نقض الزنبق عهد الغرام أم اجّل النرجس يوم الزفاف؟[2]

وفي الوقت الذي يريد فيه الانعطاف للطبيعة البشرية على الأرض، فإنه يبقي الخيط متصلاً مع الطبيعة النباتية، حتى لا ينتقل نقلة مفاجئة، وتأتي اللوحة الجديدة متمثلة في إنسان يقطع شجرة ، فيشاهده الشاعر ويسمع صوت الشجرة تشكو له حالها.

تقول الشجرة إن رأسها كان يصل السماء ، تلامس القمر، كما كانت الشمس تلقي عليها تحية الصباح كل يوم قبل أي عنصر آخر من عناصر الطبيعة، ولشدة قربها من السماء تكاد تقطف البدور، أما تحتها ، فتتعدد الأزهار اللطيفة والطيور تشدو على أغصانها قرب الغدير، فتشبه حالها بالفردوس يرتع فيها الأطفال والحور.

وتتابع الشجرة شكواها بأنها كانت تتناول الخمرة عندما تأتيها على طبق السحاب،

---

(1) المرجع نفسه ، ص 40.
(2) المرجع نفسه ، ص 97.

وكأن قطع الغيوم البيضاء زبدها – الخمرة – يفور على سطحها ، وهذا يدل على أن الشاعر واع لمسألة الأحوال الجوية، فالغيم الأسود مشبع ببخار الماء وهو أثقل من الغيوم البيضاء، وبالتالي تكون الصورة مشابهة –فعلاً– للخمرة وزبدها.

ولا تُنّكر الشجرة معروف الفلاح الذي زرعها ورواها من عرق جبينه، ولشدة غزارة العرق الذي يتصبب منه يكاد يكون له خرير، ونَفَسهُ الطويل –نفس الفلاح– تحسبه هديراً، ولمعوله صدى حيث يضرب به كأنه عظم يتكسر، ثم يأوي إلى ظلها في ساعات الحر بعد أن كبرت وأصبحت تظلل المكان.

وتعود نفسية الشاعر تظهر في هذه القصيدة، إذ إنه يشير إلى أن النبات يعيش حياة أفضل من الإنسان، فجميع النباتات متساوية في العيش، ليس منها ما ينام على حرير أو حصير، أما غذاؤها فهو التراب، وشرابها البحار، على عكس البشر الذي يتنازعون العيش ووسائله.

هذه هي الشجرة تمتص اللبن من ثدي والدة درور (الأرض) وأمامها الغابات كأنها حاشية لهذه الشجرة الأميرة، كل ذلك العيش الهانئ لها ما زالت تعيشه، إلى أن جاءها قرد حقير بلا ذنب، قزم قصير –مقارنة مع طول الشجرة– يسمى إنساناً ، تظلل بها فحسبته وفياً، إلا أنه غدر بها وهوى على جذعها بمنشاره حتى قطعها، وفي لحظات السقوط كانت تنظر إلى الشمس والقمر والجبال، وتمسح دموعها بمناديلها (أوراقها) حتى هوت ممزقة الغيوم، وصفعت وجه الأرض، فأقسمت لو أن الأرض تدور بنفسها لدارت من شدة تلك الصفعة، فيقول القروي على لسان الشجرة في القصيدة التي سماها باسمها (الدوحة الساقطة):

تشدو الطيور على غصوني فوق مصطفق الغديرُ
فكأنني الفردوس يرتع فيّ ولدان وحورُ
أتناول الصهباء عن طبق السحاب إذا يدور
وكأنما قطع الغمام البيض رغوتها تفورُ
خمراً مجددة الشباب فما معتقة الديور
طوراً تلاعبني الصبا حيناً تداعبني الدبور

فإذا هززت الخصر تحسدني رشيقات الخصور
نحن البنات جميعنـــا راضٍ بمـــا قـــسم القـــدير
نحيا سواء ليس يمتاز الكبيـــر عـــن الـــصغير
لا من ينام على الحرير ومن ينام على الحصير
هذا التراب طعامنـــا وشـــرابنا هـــذي البحـــور
ما زلت أهزأ بالصواعق والعناصر والعـــصور
وأمـــامي الغابـــات مائلـــة كحاشـــية الأميـــر
حتى دنا من ساحتي قـــرد بـــلا ذنـــب حقيـــر
قزم قصير بات طرفي عـــن تبينـــه حـــسير[1]
هو ذلك الإنسان من ْ ابـــداً يجـــور ولا يُجيـــر
وأتى بمنشار كشدق الحوت يسطع منـــه نـــور
وهوى على جذعي به حتى غدوت على شـــفير
يا سنديان لك العزاء ويا صنوبر كن صـــبور[2]
سلطانة الغابات خاشعة تميـــل عـــن الـــسرير
أين افتخارك أيها الإنسان قل لـــي يـــا فخـــور
قد عشت أكثر منك في موتي وموتي لا يـــضير
قد كنت مأوى للطيور فصرت جـــسراً للعبـــور
وعمود نور يستضاء به وعكـــاز الـــضرير[3]

وبعد هذه المعركة بين الإنسان والنبات، يترك شاعرنا هذا الجانب من الطبيعة، يترك الشجر والورد والربوع ليستفرد بالفتيات والبشر، فيصف محبوبته بكل صفات الجمـــال، هي ماسة خلف زجاج يراها جميع البشر ولا ينالها غيره، وتبقى نفسية الشاعر تؤثر فـــي شعره، وهذا طبيعي، إذ إن سواد شعر الحبيبة لم يأت من سواد الليل، إنما من سواد حـــظ

(1) سكّن الشاعر خبر بات (حسير) ليناسب الوزن والقافية، مع أن حقه النصب هنا.
(2) سكّن الشاعر خبر بات (صبور) ليناسب الوزن والقافية، مع أن حقه النصب هنا.
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 152-157.

الحبيب، وقد نوهت إلى إقحام الشاعر فلسفته وضنك عيشه في شعره أكثر من مرة في مواقع متعددة، يقول:

يقربك الجمال لك راجٍ فيدنو ثم يُبعده الجلالُ
كأنك ماسةٌ خلف الزجاج تراها العين لكن لا تنالُ
رضابك منهل العسل المبرد فما أحلى وما أشهى الرضابا
وشعرك لم يكن كالليل أسود فمن حظي أخذت له خضابا[1]

وقال يصف فتاة لبنانية لطمت أحد الأجانب في البرازيل عندما حاول مغازلتها، وكان شاعرنا يراها:

يا زهرة قد فتحت أكمامها بجوار أرز الرب خير جوار
رفعت بشرى رأسها بك عزة حق السماء تتيه بالأقمار
والأرز مد إلى العلا أغصانه وزها على الجنات بالإثمار
بهرت تلاميذ المدارس أوجه سجد الربيع لهن في آذار[2]

فهذه هي أخلاق الفتاة العربية في البرازيل، وعلى العرب أن تتباهى على سائر الأمم بهذه الأخلاق، وعلى أرز لبنان أن تطال أغصانه عنان السماء فخراً بهذه الفتاة، وعلى الربيع أن يسجد في أعظم حلية له أمام هذا الوجه الخلوق الذي بقي محافظاً على عادات العرب وتقاليدهم في ذلك المجتمع الغربي الذي يحتقر عادات العرب.

وفي مقابل هذه الفتاة العربية يعطينا صورة الفتاة الغربية وكأنه يعقد مقارنة بينهما، يصور فتاة الغرب وهي تلبس ما يكشف عورتها، وأراه يركز على الجلباب، ما دفعني للقول إن صورة اللباس المحتشم مستمدة من البيئة العربية والإسلامية على وجه الخصوص، مع أن الشاعر مسيحي، فيقول:

لحدّ الركبتين تشمرينا بربك أي نهر تعبرينا ؟
مضى الخلخال حين الساق أمست تطوقها عيون الناظرينا

([1]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 65-66.
([2]) المرجع نفسه ، ص 127.

كأن الثـوب ظـل فـي صـباح يزيـد تقلـصاً حينـاً فحينـا
فيا ليت الحجـاب هـوى فأمـسى يـرد الـساق عنـا لا الجبينـا
فـإن الـساق أجـدر أن تغطـى وإن الوجـه أولـى أن يبينـا[1]

لقد جاء القروي في هذه الأبيات بصورة من التشبيه التمثيلي لا أظن أن أحداً سبقه إليها، فهو يشبه تطويق عيون الناس بنظراتها لسيقان الفتاة بتطويق الخلخال لها ، لأن العيون تنظر من جميع الزوايا حتى ختمت الدائرة إلى ثلاثمائة وستين درجة، أما تقلص الثوب وتقصيره بين فترة وأخرى عند نساء الغرب حتى غدا إلى مستوى الركبة بعد أن كان طوله يغطي الكعبين تقريباً ، فيشبهه بالظل عند الصباح، إذ يكون في أقصى طول له، ولكنه يبدأ بالقصر بين دقيقة وأخرى حتى يغدو أقصر من الطول الحقيقي، وهذان تشبيهان تمثيليان متحركان أبدع فيهما الشاعر إيما إبداع.

ويعطي القوري للشعر والصوت صوراً مستقلة عندما يصف فتاة برازيلية في قصيدة (بين الصداقة والحب)، إلى جانب ما أبدع الله في خلقها من صفات، وإنه – سبحانه – عندما خلقها لم يراع حساباً للحسن، فمنحها كل الحسن العربي، فهي قريبة جداً من الملامح العربية، وجمالها جمال عربيّ فكأن الخدود ملونة بلون الورد، والشعر لامعٌ والصوت عذب كأنه يفوح عطراً، عاشرها شاعرنا أربع ليالٍ ، تبادلا فيها كل شيء، فارته محاسنها ، وأراها أدبه، كان يستهوي منها الغناء وتستهوي منه صوت العود، فيقول:

وشـعر لامـع لـم أدر منـه أليـلا قـد أرتنـي أم شـهابا
وصوت يسكر الألبـاب فاعجـب لمـن شـربوا بأسـماع شـرابا
إذا ماجـت رخامتـه علينـا مـع الأنفـاس تغمرنـا ملابـا[2]
كـأن الـورد خـضّب وجنتيهـا وغير الحسن لم تعرف خـضابا[3]

أما المقلة والنهد، فيصفهما في صورة عظيمة، النهد البارز عن باقي الصدر كأنه

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 163.
(2) الملاب : العطر، ينظر لسان العرب ، مادة ملب.
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 195.

متكبر عمن حوله، أما العين فتتواضع بنظراتها وتنظر إلى الأسفل ويقع البصر على النهد البارز، فشبه عينها بشخص متواضع ينظر إلى شخص متكبر وهو النهد، وقد عبر القروي عن ذلك بقوله:

غضت حياءً مذ دنوت فصح لي معنى الغرام بطرفها المتكسر
فكأن مقلتها وبارز نهدها متواضع يرنوا إلى متكبر[1]

ونبقى في الطبيعة البشرية، فهو لم ينس إخوته ، ولم ينس أن يزينهم بالمناظر الطبيعية، فإخوته يسيرون للكرم كالعقد المنظوم ولا يعودون إلا بعد انتهاء الموسم، يقول:

أراهم وقد صاح ديك الصباح وهبت عصافيره الجاثمة
يسيرون للكرم عقداً نظيماً يمجد في حسنه ناظمه
يرون العناقيد متكئات على أمها كالدمى النائمة
فلا يرجعون من الكرم إلا وموعدهم سنة قادمة[2]

أما باقي الناس في المجتمع عند القروي، فيصورهم عندما يصف "جمعية زهرة الإحسان" التي وصل فضلها لجميع الناس، فكأنها في كل مكان ويفضل تسميتها جنة الإحسان بدلاً من زهرة الإحسان ، يقول:

عمّت عوارف زهرة الإحسان فكأنما نبتت بكل مكان
وزكّت مجالسها فما هي زهرة ال إحسان بل هي جنة الإحسان
فترنم الأطيار في أفنانها هو شكر محتاج إلى معوان
وتمايل الأغصان في أدواحها هو عطف إنسان على إنسان[3]

بعد هذا الفاصل من الناس والإخوة يعود الشاعر لوصف الجسم، ولكن هذه المرة جسمه هو، فقد وصف جسم الأنثى بما فيه الكفاية، ويبدأ بشاربيه اللذين حلقهما بعد أن كانا يزعجانه، فإذا أكل أكلا معه ، وإذا شرب شربا معه، وأحياناً يلتطمان بعينيه، وإذا طالا أصبحا كالمقربين ، فيقول:

([1]) المرجع نفسه ، ص 80.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 63.
([3]) المرجع نفسه ، ص 67.

إن ينـــــزلا لجمـــــا فمـــــي أو يـــــصعدا التطمـــــا بعينـــــي
فـــــــإذا أردت الأكـــــــل يقتـــــسمان بينهمـــــا وبينـــــي
وإذا أردت الـــــــــــــشرب يمتـــــــصان كالإســـــــفنجتين[1]

وفي بداية تحول لون شعره من الأسود إلى الأبيض ، تظهر له شعرة بيضاء، فيشبهها بعود الثقاب الذي يشتعل في الوقود، فيفضل أن يتركها حتى تعـدي أخواتهـا بـبطء لأن انتزاعها ربما يعطيها قوة، فتقليم أغصان الكرمة يزيد من نموها، وهذا تشبيه جد جميـل ومناسب، فيقول:

أرى شعلة عمّت بها الرأس إنهـا لعـود ثقـاب والـشعور وقـود
ســأتركها تعـدي بـه أخواتهـا على مهـل فـالنزع لـيس يفيـد
وفي نزعها أغدو كقاضب كرمـة يشذب مـن أغـصانها فتزيـد[2]

وبعد ذلك يتجه إلى وصف مسكن الإنسان، فيصف القصور ، يصف علوهـا الـذي قارب على ملامسة السماء، فيقول :

قـصور تـشيّد فـوق القـصور كـأن الخورنـق يعلـو الـسدير
تكـاد تزحـزح صـدر الـسماء وتبرز من فوق سـطح الأثيـر[3]

ويصف علم الدولة أيضاً، يرفرف فوق الجميع، فيقول:

مـــن ذلـــك المختـــال الحديـــد بالطلعـــة الغـــراء مثـــل الـــصباح
هزّته فـي الـسلم رمـاح القـدود شـوقا إلـى هـز قـدود الرمـاح
من تلكـم الأبطـال سـود الـسبال يمـشون للهيجـاء مـشي الأسـود
قـد نـشأوا كـالأرز بـين الجبـال فاتخـذوا الأرز شـعار الخلـود[4]

ورد في هامش الديوان أن هذه الأبيات نظمت قبل أن يتّخذ لبنان المستقل شعار الأرز

(1) المرجع نفسه ، ص 60.
(2) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 47.
(3) المرجع نفسه ، ص 90.
(4) المرجع نفسه ، ص 114

على العلم بثلث قرن، وهذا يؤكد مدى تأثير القروي على أمته وشعبه وحكومته، فهو لم يؤثر في المجال العاطفي ولا الاجتماعي في نقده للمجتمع وحسب، بل تعدى ذلك إلى الجانب السياسي، فهو شاعر العروبة بالدرجة الأولى، وكان لأشعاره تأثيرها الواضح على الشعب اللبناني والشعوب العربية.

أما ما يستخدمه الإنسان من حيوانات في خدمة الأرض فيتطرق إليه القروي، ويذكر الثور ويشفق عليه وهو يحرث الأرض ويذوق من العذاب الأليم ما لا يقبله غيره، دون أن يشتكي أو يحقد على صاحبه، يقول:

حامل النير منذ بدء الوجود ... خاضعاً صابراً وديعاً كريما
تقبل الوخز والعذاب الأليما ... غير شاك ظلماً وغير حقود[1]

وعلى نفس النهج، لا يذكر المذكّر إلا ويذكر المؤنث أيضاً، وبالعكس، وكأنه من دعاة المساواة بين الجنسين، فهو هنا يذكر البقرة حتى لا يبقي الثور وحيداً بين هذه الأشعار، فيقول حاسدا البقرة على العيش بحرية:

طوباك سارحة في القفر طوباك ... إن كنت أحسد مخلوقا فإياك
الزهر مثلك في الأفاق منتشر ... تغشى مروج العلا والليل معتكر
تالله كم يتمنى عيشك البشر ... ماذا تخافين في البيداء يا بقر
إن كنت تخشين من أنياب فتاك ... طوباك فالجلد غير العرض طوباك[2]

أما الآلات التي صنعها الإنسان، فيذكر منها السيارة، حيث صنعت للقضاء على الإنسان – في نظر الشاعر – بعد أن صدمت رجله، فيقول:

يصيب القضاء الرمية أعمى ... فكيف وعيناه من كهربا
يسمونه " الأطوموبيل" جهلا ... ولو أنصفوه دعوه الوبا
وما الداء منتشراً في البسيطة ... من " فرد" أنكى ولا أنكبى

([1]) المرجع نفسه ، ص 150.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 222.

يفـــاجئ لـــيس لـــه نبـــأة وتـــسمع للمـــوت عنـــه نبـــا[1]

ويذكر القطار عندما كان يسافر عبر الجبال والسهول، يركب هذا الجبـل (القطـار) الذي لا يعيقه مطر ولا برد، يشبهه في مشيته كفتاة مدللة، إلا أنه يـصعّد مـن أنفاسـه زفرات تضج لها الجبال، وإذا ما وصل الحقول، فإنه يستنشق ذلك العطـر الفـواح، ولا يخرج أنفاسه ما دام يختال بينها، فيقول:

كأنه جبـل يمـشي علـى جبـل يرسو إذا شاء طـوراً ثـم ينتقـل
ما عاقه في السرى برد ولا مطـر كأن لطم الحيا فـي وجهـه قُبـل

يمشي الهويدا كخودٍ[2] ناعس نهـضت عند الضحى لم يزل في جفنها ثقل
والكرم عن جانبيـه مطـرق خجـل كالغيد خف إليهـا فـارس بطـل
ترى العناقيـد مـن أعناقهـا بـرزت مثل النهود ولكن درّهـا عـسل[3]

فها هي الكروم خلة صامتة لهذا الفارس البطل الذي زارها، وتقف عناقيـد العنـب إجلالاً لهذا الأمير، وهي في وقفتها وبروزها من بين الأغصان كـالنهود البـارزة عـن أجسام الفتيات الحسان، ولكنها لاتدرّ حليباً على هذا الفارس، لأنه تعدى مرحلة الطفولـة إلى مرحلة الفروسية التي يحتاج فيها إلى العسل كغذاء، وها هي العناقيد تجود به.

وإذا اراد الشاعر أن يتحوّل إلى الماء، إلى الغدران والأنهار والبحار، فإنه لا يتحول بصورة مفاجئة ايضاً، بل يتخذ من الموضوع السابق مدخلاً للموضوع التالي، فكما اتخـذ من الطبيعة النباتية مدخلاً للطبيعة البشرية، يتخذ من الطبيعة البـشرية مـدخلاً للطبيعـة المائية، فتراه يصف صورة فتاة في صحيفة وجدها ملقاه في غدير وكأنها غرقت فيه، فبدأ بوصفها في الماء، فهي – مع كونها صورة – سبت قلبه، توزعت نظراتُ قلبِ الليـل – بين شعرها وحاجبيها وعينيها وجفنيها وأهدابها، وظهر جبينها ووجنتاها كأنهما مـضيئتان لشدة بياضهما، وكأن الضحى قد منح حسنه وضياءه لذلك العنق الذي يصفه بأنه منحوت من حجر اليشب المتبلور الملون بألوان مختلفة جميلة، انعكـست عـن ألـوان الزهـور

(1) المرجع نفسه ، ص 23.
(2) الخود : الشابة الناعمة الحسنة الخلقز ينظر لسان العرب مادة، (خود).
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 29–30.

والورود التي عكستها أشعّة الشمس، يقول:

وما هي إلا صورة في صحيفة سبت كبدي سبياً وكم صورٍ تسبي
توزع قلب الليل بين شعرها وحاجبيها واللحظ والجفن والهدب
ولاح لعيني في الدجى من جبينها ومن وجنتيها مطلع الشفق القطبي
كأن الضحى قد أفرغت كل حسنها على جيدها المنحوت من حجر اليشب[1]

ثم ينتقل إلى الماء فيبدأ بالغدران التي يرجو تحويلها إلى قلبه حتى تطفئ نار الحب عنده، فيقول:

الا حولوا هذا الغدير إلى قلبي أما للاماني عندكم قيمة العشب
عسى غلة كالنار يطفئها الندى بمجدبة الآمال مخصبة الحب[2]

ويذكّرالشاعر بالعلاقة بين كل ما سبق والماء، يذكّر بالعلاقة بين الشمس والطير والنهر، فالشمس ترسل نورها ضاحكة، والطيور تشدو طَرِبةَ في هذا الجو المشمس والنهر يجيب الطيور ويهتف بخريره، يقول:

الشمس للأكوان ضاحكة عن باهر الأنوار تفتر
والطير ترسل شدوها طربا فيجيبها بخريره النهرُ[3]

وعندما يصل البحر يصف مكانه في معرض الفخر بنفسه، إذ هو إنسان متواضع جداً، وهذا لا يعيبه، لأن البحر بعظمته لا يكون إلا في مناطق منخفضة من الأرض، يقول:

وما حط من قدْري التواضع إنني أرى البحر في أدنى مكانٍ من الأرض[4]

ولا يحتلّ البحر مكانة في شعر القروي إلا إذا أمضى وقتاً بين لججه، فقد قطع المحيط الأطلسي على متن باخرة راحت تميل به، ويرفعها الموج ويخفضها، فراح يناجي

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 181.
(2) المرجع نفسه ، ص 179.
(3) المرجع نفسه ، ص 57.
(4) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 37.

ربه ويقول:

لله بـــاخرة راحـــت تميـــل بنـــا يعلو بها الموج طوراً ثم يخفضها[1]

ثم يواصل وصفه إياها، فيعلل سبب صنعها بأن بلاد الإنجليز ضاقت بأهلها، فبنت لهم هذه الأرض (الباخرة) فوق المياه، تحسبها جزيرة عندما ترسو، أمّا إذا تحركت فتحـــسبها جواداً ينساب في عرض البحر يسترق الزمن لسرعته، ويقول:

ضـــاقت بـــلاد الإنجليـــز باهلهـــا فبنت لهـــم فـــوق البحـــار بـــلادا
قطع يخلـــن إذا رســـون جزائـــراً فـــإذا ســـرين تخـــالهن جيـــادا
تنساب في عرض المحـــيط كأنهـــا تطوي الزمان وتنهـــب الأبـــادا[2]

ويختم القروي في هذا الباب بوصف السمكة التي أخذت تطوف بأنحاء السفينة تطلب طعاماً، لها زعانف لامعة كلمع ذباب يضيء ذيله في ليل أزرق، فيشبه ماء البحر بالليـــل الأرزق، لظهور لون الماء باللون الأزرق نتيجة لانعكاس لون السماء عليه وتأثير أشـــعة الطيف الزرقاء، ويقول القروي في وصف هذه السمكة بيتا يكاد يكون ملخـــصاً لحكمـــة استمدها من معاملة العرب أنفسهم، وتعبر عن ألم الشاعر لتخاذل قومه وخضوعهم لولاية الغرباء، فيقول إن هذه السمكة لم تؤذ إلا السمك كأنها عربية رضعت حليب تَفْرقةٍ، يقول:

بـــرزت بأنحـــاء الـــسفينة ترتجـــي فـــضل الكـــريم ونعمـــة المتـــصدق
بزعـــانف تحـــت المحـــيط لوامـــع لمـــع الحباحـــب وســـط ليـــلٍ أزرق
لـــم تـــؤذِ إلا جنـــسها فكأنهـــا عربيـــة رضـــعت حليـــب تفـــرق[3]

هذه هي ألوان الطبيعة في البواكير في شتى عناصرها وأثوابها، طبيعة تنم عن نفسية صاحبها، ولم أجمع كل ما اختص بها في هذا الباب، إنما أخذت شواهد محددة على كـــل جزئية من جزئياتها، من أعالي السماء حتى قيعان البحار ولا أعرف كم كنت موفقاً فـــي نهجي هذا المنهج، عالجت الباب كقصيدة واحدة ضمّت العديـــد مـــن العناصـــر الجويـــة

(1) المرجع نفسه ، ص 56.
(2) المرجع نفسه ، ص 42-43.
(3) المرجع نفسه ، ص 121.

والأرضية، وأبقيت الخيط متصلاً بين كل العناصر، مثلما رأينا القروي ينعطف برفق وتدرج من عنصر لآخر، كي يبقى القارئ منسجماً في القراءة ولا ينقطع بين منظر وآخر، أو بين لوحة وأخرى، كما رأينا في هذا المبحث، تحوّل القروي من الطبيعة الجوية إلى الأرضية عن طريق استخدام الشمس والطير والنهر، كلّ منها يقوم بحركة يجيبه الآخر بحركة خاصة به، الشمس تبعث الضياء، والطير يشدو والنهر يهتف بخريره لذلك الصوت الطرب.

كما أن انعطاف الشاعر من الطبيعة البشرية إلى الماء جاء ذكياً عندما استخدم صورة الفتاة في صحيفة ملقاة في مياه الغدير، هذه الانعطافات جاءت ذكية – كما ذكرت– وعفوية أيضاً، إلا أن الشاعر أظهر تلك العلاقات المتبادلة بين عناصر الطبيعة، فكيف تشدو الطيور من دون جو مشمس وغصون خضراء ملونة بأجمل ألوان الزهور؟ وكيف يتجول الإنسان في الغابات والحدائق إذا كانت جميع السنة خريفاً؟ وكيف تجري الأنهار وتطلقُ خريرها بين الوديان من دون نزول الأمطار؟ وكيف تظهر محاسن الفتيات من دون وجود الشباب الذين يحكمون عليهن؟ هذا كله مبني على علاقات مزاوجة بين عناصر الطبيعة المختلفة، ولولا تكامها لما ظهر في الطبيعة شيء حسن.

الطبيعة في باب زوايا الشباب

لقد استخدم القروي الطبيعة في هذا الباب بشكل مفرط، ولكنه جعلها تصب في موضوع واحد، وهو علاقة الشاعر بحبيبته (لمياء)، إذ وظّف جميع الطبيعة في خدمتها، فجاءت هذه الحبيبة أعلى مرتبة من الشمس والكواكب والنجوم، طغى حسنها على معالم الوجود لدى شاعرنا.

ينظر الشاعر إلى السماء كعادته التي رسمتها له في هذا البحث، ومتى رأى الشمس فإن حسنها يكاد يفتنه ويُذهب عقله، وعندما تظهر النجوم، فإنه يراقب ضوءها ويتمتع به، فيقول:

تطلع الشمس يستبيني بهاها وتلوح النجوم أرعى سناها[1]

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 689.

وبهذا الظهور للشمس والنجوم، تظهر الحبيبة وقد جمعت محاسن كثيرة، جمعت حسن النهار والليل والسماء والقمر، والربى والوهاد والغصون والزهر وقطر الندى وشدو الكنار، فكأنه يريد القول إنها تمثّل الطبيعة كاملة، حيث يقول:

يا سليمى جمعت حسن النهار ... والدجى والليل والأقمار
والربى والوهاد والغصن والزهر ... وقطر الندى وشدو الكنار[1]

إن حبيبة القروي ملكة جمال لا مثيل لها في الكون، تظهر من أعلى البروج، تشاهدها الكواكب فتهوي وصائفَ حولها، وهي أجمل من هذه الكواكب، وعندما تظهر وتنظر إلى جبينها فإنك لا تستطيع التحديق بها لشدة بياضها وجمالها، فتزيح الطرف إلى شَعرها، ويسترسل في الوصف فيقول إن الملائكة قد ثملت بتلك الرائحة الزكية التي تهب من برديها على الجنة، وهوت البلابل من أعلى أشجارها إلى عطفي الحبيبة، وترك النسيمُ الروابي والخمائل حتى يشم العطر الصافي من خديها، ويبالغ الشاعر عندما يقول إن النحل لا يجني إلا حنظلاً من الزهور إذا ما قورن مع ما يجنيه شاعرنا من فم حبيبته، يقول:

أطللت من أعلى البروج فأوشكت ... تهوي الشموس وصائفاً حوليك
تسمو العيون إلى جبينك لمحة ... وتفر من بهر إلى فرعيك
سكرت ملائكة النعيم لنفحةٍ ... هبّت على الفردوس من برديك
وترنّحت أعطاف بانات الهوى ... وهوت بلابلها على عطفيك
وجلا النسيم عن الخمائل والربى ... ليشم عطر الورد من شفتيك[2]

وبعد هذه المقدمة يبدأ الشاعر بعرض قصته مع الحبيبة، فيعرضها نُتفاً موزعة على معظم قصائد هذا الباب –باب زوايا الشباب– فيسأل في بداية حديثه إذا كانت حبيبته تسمعه: هل تذكر لقاءهما في تلك الروضة السحرية؟ ويفصّل في الواقعة، فقد كانت الطيور تهتف باسمها والشمس تلقي في المروج ظلهما حتى تبقى المروج محتفظة بطيف الحبيبة، والنحل يدل شاعرنا على تقبيل العشيقة ورشف شهدها مثلما يقبل الزهر ويرشف

(1) المرجع نفسه والصفحة نفسها .
(2) المرجع نفسه ، ص 692.

الرحيق، والأغصان تدله على كيفية العناق مثلما تتلوى على بعضها، ويذكَر الشاعر حبيبته عندما أعطاها الزهور ليشغلها بشمها وانشغل هو بشم جسدها بدلا من الزهور، ثم استلقيا بين أحضان الطبيعة كأنهما ثملان، يقول:

هل تذكرين لقاءنا في روضة ... سحرية والطير تهتف باسمك
والشمس تلقي في المروج ... ظلالنا عمداً لتحتفظ المروج برسمك
والنحل يطمّعني برشف لماكِ ... والأغصان تغري ساعديّ بضمك
لما شغلتك بالزهور هنيهةً ... وشغلت عن شم الزهور بشمّك
ثم ارتمينا بين أحضان الربى ... ثملين في الغصن الندي كجسمكِ[1]

ويشبه حبيبته بالنحلة التي لا يُخاف سمّها، لأن مذاق شهدها يطغى على ذلك الضرر، كما يشبهها بالزهرة النقية التي لم يسبقه إليها وإلى إخراجها من كمّها، فهي بكر عذراء وهو أول من عانقها وضاجعها، يقول:

يا نحلة دون الأزاهر هجتها ... من ذاق شهدك لم يَخفْ سمّك
يا زهرة زحزحت عنها كمها ... روحي فدى الحسن الخبيء بكمك[2]

ثم يصف ذهابه إلهيا في جنح الليل، إذ يشبه لباسه بجبّة راهب سوداء، وهو حقيقة لم يكن لابساً مثل هذه الجبة، إنما سواد الليل وظلمته كأنهما ألبساه جبة راهب، مكث قبالة القصر ينتظر إشارة منها بالقدوم أو الرواح، وفي لحظات الانتظار يصف الأغصان التي تطوقه كأنها معاصم من دمالج من النوّار، إذا داعبتها الرياح تمايلت، وعندها يشبه نفسه كأنه بين الهوادج يطل على قصر غمدان، وفي أثناء الوصف أضاءت له إشارة بيضاء تعني القدوم، وجاءت هذه الإشارة بعد فقد الأمل باللقاء، يقول:

لبست إلى العذراء جبة راهب ... من الليل لم تعلق بها كف ناسج
وبتُّ حيال القصر أرعى إشارة ... بأبيض يعني جئ وأحمر لا تج
تطوقني أغصان دوح كأنها ... معاصم من نوارها دمالج

([1]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 690.
([2]) المرجع نفسه ، ص 691.

إذا داعبتها الريح مـــادت فخلتنـــي أطل على غمدان[1] بين الهـــوادج
فلما أزيح السّجف[2] أورق طـــالعي وأزهـــر فـــي منـــديلها المتمـــاوج
وراح فؤادي واثباً فـــي أضـــالعي كوثبي بين أعطاف تلك المواراج[3]

وفي لحظات اللقاء يتذكر الشاعر عندما كانا بين الكروم في ساعات المساء يتسامران، حيث الشمس نائمة والنجوم بارزة تغازل القمر، فيقول:

يا حبذا الأمس – في خلوة الكروم – ونشوة السحر
إذا نامت الشمس – وهبّت النجوم – تغازل القمر[4]

ويتذكر حين اختفيا عن الناس كأنهما طيران في وكر، ثم أطبقا ثغريهما على بعـــض فإذا هناك بلبل قد رآهما وعرف سرّهما، وأخرج الورق من حفيفه معلناً أنه قد عرف ما جرى أيضاً، وكذلك العناقيد، فقد برزت تحملق فيهما، وأسرع النسيم يهز الأغصان حتى يوقظ جميع الطيور لترى هذه الواقعة، فإذا شاعرنا ينهزم كالغزال ويتمنى عدم الفضيحة، يقول:

لما توارينا – عن أعين الـــصحب – طيـــرين فـــي وكـــر
ثم تهاوينا – مـــن ســـكرة الحـــب – ثغـــراً علـــى ثغـــر
حتى إذا انطلق – من عـــشه غريـــد – بـــسرنا المكنـــون
تنحـــنح الـــورق – والتفـــت العنقـــود – وكلـــه عيـــون
وهزهـــز النـــسيم – أســـرة الغـــصون – ينبّـــه الأطيـــار
فثرت مثل الريم – خوفا من العيون – وصحت يا ستار[5]

ولكنه الأن في القصر وقد أمن عيون البشر والطبيعة، وها هو يغوص فـــي أعمـــاق حبيبته يقطف لآلئها ويمتص ثديها، يداعبهما وينتشي بنشوة حبه لهـــا الممـــزوج بالجـــسد

(1) غمدان : أحد حصون العرب المشهورة في اليمن : ينظر لسان العرب مادة (غمد).
(2) السجف : أحد الستارين المقرونين بينهما فرجة، يغطيان النافذة من الداخل. يُنظر أنيس، ابراهيم، المعجم الوسيط، ص 417.
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 701.
(4) المرجع نفسه ، ص 716.
(5) المرجع نفسه ، ص 716.

والروح، وعندما تصده لانه ألمها تنزل دموع شاعرنا، ولكن حبيبته تعطف عليه وتسأله أي شيء يريد منها لتُسلّمه نفسها وتطوّقه بساعديها، فيقول:

علقتُ بدُريّ الثنايا أمصه ... وأطلق كفي بين ورد وتفاح
كأن وليداً يلقم الثدي جائعاً ... تلقفه بالعين والفم والراح
فآلمتها عضاً فصاحت فلم أُبّل ... لقد أسمعت لمياء لو أنني صاح[1]

ولما رأت الحبيبة دموعه تتساقط على صدرها قالت :

أمثلك يبكي ؟ قلت لو يسعد البُكا ... فقالت مُر حبيبي جُعِلت فداكا
عيوني تبغي أم خدودي ام فمي ؟ ... فقلت هذي وتلك وذاكا[2]

ثم أسلمت نفسها له ، فيقول :

فمدت لتطويقي جناحي حمامة ... تحاول من أسر البزاة فكاكا
وبتُ أعل الخمر والشهد والندى ... أقول لها هاتي فتردف هاكا[3]

ثم يصف بعد ذلك مفاتنها وصفاً يكاد يكون من الغزل الفاحش، وبعد معاشرته هذه الحبيبة والتمتع بها في تلك الليلة يذهب إلى ما تصنعه كفّاها من حلوى في الصباح، فكأنه تعشى في الفراش من خدّيها وجسدها وشرب من لعابها، لذلك لا بد من فاكهة أو حلوى بعد هذه الوجبة الدسمة، فحلواها فاكهة القلوب، معطرة زكية ورائحتها كرائحة تفاح الشام ، ويبالغ الشاعر في المذاق اللذيذ بأن لذته ما جاءت مما سبق من مكونات، بل عندما ذاقت تلك الحبيبة هذه الحلوى عطّرتها بأنفاسها ولهاثها الفوّاح، وبللتها بقطرة من عرق جبينها الذي يشبه ماء الورد، فيقول:

حلواك فاكهة القلوب وصحةٌ ... تضفي على الأجساد والأرواح
هفّت عليّ طيوبُها فكأنني ... في الشام بين جنائن التفاح
أعجنتها بالمسك ثم نضحتها ... بالطل ثم غمستها بالراح
لا بل حلت لما خبرت مذاقها ... وزكت بعطر لهاثك الفواح

([1]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 709.
([2]) المرجع نفسه ، ص 686.
([3]) المرجع نفسه و الصفحة نفسها .

وعرقت فانحدرت عليهـا قطـرة من ماء ورد جبينـك الوضـاح[1]

وعندما ينظر لنفسه بعد مغامرته مع هذه الحبيبة فيجد نفسه غير قادر علـى خـوض مثل هذه المغامرات، ويتحسّر على شبابه، فحمرة الخدود، واهتزاز القدود، وبروز النهود كله عبث أمام هذا الشاعر العجوز، فيرى كل الطبيعة من حوله صامتة موحشة، وهذا ما آل إليه شاعرنا في هذا الباب، وصل في البداية إلى الشمس والأقمار والكواكب والنجـوم والقصور المرتفعة، وتجول في الحدائق والطيور أحاطب به، وتمتـع بـشبابه وخـاض مغامرات غرامية وها هو يؤول إلى باطن الأرض قائلاً:

اين ذاك الشباب والزهوّ والتشبيب أين الغناء أين العـود
الأغاريد والخمائل والآفـاق صـمتٌ ووحـشةٌ وقيـود
عبثاً تتلظّى خـدود وتهتـز قـدود وتـشرئب نهـود[2]

وهكذا ينتهي شاعرنا، أما إذا حاولنا تبيان العلاقة بين هذا الشعر والواقع، فإنني أراه في معظمه يعبّر عن وجدانٍ صادقٍ، فلا يستبعد على شاعرنا ذهابه إلـى (لميـاء) التـي ملأت عليه حياته في كل أشعاره، وهي بالضرورة حبيبة حقيقية، وأعتقد أن الشاعر كان قد اطّلع على شعر عمر بن أبي ربيعة في حبيبته (نُعم) قبل نظمه لهذه القصائد، أو علـى الأقل قبل نظم قصيدة (لبست إلى العذراء) التي جاءت كأنها معارضة لقصيدة عمر بـن أبي ربيعة.

كانت ملاحظتي في هذا الباب من الديوان حول مدى جمال حبيبة القروي، فقد بـالغ جداً في غزله، والمبالغة في الغزل مقبولة ونجدها عند جميع الشعراء، وكـلٌّ يحـاول أن يُظْهر حبيبته أجمل من حبيبة الآخر، وأجمل من عناصر الطبيعة والكون والوجود، ولكن شاعرنا تمادى في غزله إلى درجة الفحش ، وهذا يندرج تحت الغزل الصريح، كما أنـه تمادى أيضاً في غزله العفيف، وهو بذلك يجمع بين الغزليْن العـذري والـصريح فـي المهجر.

وخلاصة هذا المبحث أن شاعرنا قد استغلّ الطبيعة لتبيان محاسن حبيبته، ولم يهـتم

([1]) المرجع نفسه ، ص 706.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 722.

بوصف عناصر الطبيعة الأخرى إلا إذا كانت الطبيعة – بمعناها الشامل– تشتمل على الحبيبة، وعندها تكون (لمياء) عنصراً من عناصر الطبيعة، وبذلك يكون القروي شاعراً من شعراء الطبيعة، وقد وظّفها لخدمة نفسها، وهو في هذا الباب من الديوان – باب زوايا الشباب– يرتقي إلى درجة مرموقة بين الشعراء، وفاق عدداً كبيراً من شعراء عصره.

الطبيعة في باب الموجات القصيرة

طبيعة هذا الباب قليلة، إلا أنها جاءت متنوعة في مقطوعات أو – كما سماها صاحبها– موجات قصيرة، فهي موجات خاطفة يُلمّح الشاعر فيها إلى غرضه تلميحاً ولا يسترسل في التفاصيل، ويمكن أن أُطلق على معظمها عنوان (الحِكَم).

يدعو شاعرنا إلى أخذ الحكمة من أي شيء تقع عليه الحواس، فلا يهم أصل الحكمة أو منبعها إن كان حسناً أو سيئاً، إنما الجودة وعدمها تكمنان في الحكمة نفسها، ويضرب مثلاً شعاع الشمس الذي يمتص الندى من أوراق الورد كما يمتص الماء من الوحل بنفس الدرجة، يقول:

استق الحكمة لا يشغلك من أي ينبوع جرت يا مستقي
فشعاع الشمس يمتص الندى من فم الورد ووحل الطرق[1]

ولا يمكن أن تأتي ظروف الحياة بنفس الإحساس في نفوس جميع الناس، فما كان عند إنسان حسناً، ربما يكون سيئاً عند غيره، والريح عندما تهب على البحر، ربما يشكو منها الملاحون، وفي المقابل، قد يتفاءل بها ملاحون آخرون حسب طبيعة إبحارهم ووسيلته، يقول:

هبّت الريح فملاح شكا عند مجراها وملاح شكر[2]

ويحاول شاعرنا إيصال حكمته إلى الناس عن طريق الزهور، يسأل زهرة: لماذا ليس لها عطر فوّاح؟ فتجيبه بأنها فقدته بسبب أعمالها السيئة في السابق، فكأنه يقول: هكذا الإنسان، يفقد احترامه وسمعته الطيبة بين الناس إذا كان قد طغى وباع شرفه في مقتبل

(1) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 744.
(2) المرجع نفسه ، ص 742.

حياته، فالذنب لا يغتفر بين الناس، يقول:

قلت يوماً لزهرة تفضح الورد قوامــاً ومبــسما ومُحيّــا
ما لكل الأزهار دونك يملأن الربى والوهاد عرفاً ذكيــاً
فأجابت فقدت عطري لأني كنت في سالف الحياة بغيّا[1]

وينظر القروي لحبة القمح نظرة تأملية حكيمة، فيطلب من الناس أخذ الحكم من شكلها الذي خلقها الله عليه، فهي لم تعط صاحبها عشر سنابل إلا ليتصدق منها بواحــدة علــى الأقل، ودليل ذلك وجود الشق الذي في وسطها فكأنه قائل إنها نصفان واحــد لــصاحبها وآخر لجاره، يقول:

من حبة القمح اتخذ مثــل النــدى يا من قبض عــن النــدى يمناكــا
هي حبة أعطتــك عــشر ســنابل لتجــود أنــت بحبــة لــسواكا
فكأنما الشق الــذي فــي وســطها لك قائلٌ: نصفي يخص أخاكــا[2]

وينظر القروي إلى مصائب الدنيا فلا يتضجّر منها ولا يجزع، إذ إن ما كــان فــي ظاهره شراً ربما يكون في حقيقته خيراً، بدليل أن النحلة تسلب الرحيق من الزهــور، إلا أنها تنقل اللقاح من زهرة لأخرى وتساعد على زيادة الإثمار، يقول:

لئن سلب النحل الأزاهر أريهــا[3] فإن حياة الزهر في أرجل النحل[4]

أما النساء فينظر لهنّ على أنهن نوعان، ويجب اختيار الزوجة الصالحة بنــاءً علــى خُلقها وطبائعها، وينصح بعدم النظر إلى الوجه الجميل أو الجسم الرشيق، وغيــره مــن الصفات الخارجية، لأن الجوهر في هذه الحالة يكون سيئاً، ويعطي شاعرنا تشبيهاً رائعــاً في معرض حديثه هذا مناسباً لهذه النصيحة، وهو أن الزهر الذي يمثّل الوجــه الحــسن كثيراً ما يشتمل على الداء، والعشب الذي يمثّل الوجه العادي كثيراً ما يشتمل على الدواء، فيقول:

---

(1) المرجع نفسه ، ص 755.
(2) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 766.
(3) الأري: رحيق الزهر. ينظر لسان العرب مادة أري.
(4) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 775

بنـــات حـــواء أعـــشاب وأزهـــار فاستلهم العقل وانظـــر كيـــف تختـــار

ولايغرنّـــك الوجـــه الجميـــل فكـــم في الزهر سمّ وكم في العشب عقار[1]

ويحض الشاعر على صقل الشخصية حتى تكتسب الهيبة والوقار من تلقاء نفسها، لأن قيمة الإنسان لا تكون ببلده أو قصره أو ماله، إنما تكون بشخصيته، مثله في ذلـــك مثـــل الأُسْد التي تبقى ملوك الغاب أنى كانت، وكذلك الثعالب، لا تعطيها وُجُرها هيبة كما لـــم تعط هي نفسها هيبة للوُجر، فالذليل ذليل والعظيم عظيم أينما وجدا، يقول:

لم تكسب الـــوُجُرَ الثعالـــبُ هيبـــةً والأُسْدُ حيث تكون كان عرينها[2]

ويرى القروي أن هناك اختصاصاً في الحياة، فقد خلق الله الكائنات الحيـــة متنوعـــة الأمزجة والحركات والأذواق، فالنباتات لا تشرب إلا الماء بعد تلويثه بالتراب أو الوحـــل أو الفضلات، والحيوانات لا تأكل جميعها نفس الطعام، فيها المفترسة وفيها القـــوارض، ومن هنا يذكر القروي الحمار على أنه عارف في شؤون الحياة، فهو لا يرعى زهـــوراً، ولا يلهو عن غذائه الرئيس (العشب) بقطف الزهور أو شمها، يقول:

أرأيت في المرعى حماراً عـــاقلاً يلهو عن الأعـــشاب بالأزهـــار[3]

وآخر ما يقع تحت هذا الموضوع من باب الموجات القصيرة هو نظرة الشاعر إلـــى تابوته وهو يدلّى إلى جوف التراب محتضناً إياه، كأنه في بطن حوت غاص في أعمـــاق البحر، يقول:

أرانـــي وتـــابوتي يُـــدَلّى كـــأنني بأحشاء حوت غاص في لجة الرمس[4]

هذه هي الطبيعة في هذا الباب، وينمّ توظيفها عن شخصية شاعر حكيم كابد في الحياة واستخلص العبر، وقد وُظّفت الطبيعة في هذا المضمار لغرض أسمى من وصف الطبيعة ذاتها، فهمّ الشاعر ليس تبيان محاسنها أو مساوئها، إنما همّه وهدفه النـــصح والإرشـــاد

---

(1) المرجع نفسه ، ص 735.
(2) المرجع نفسه ، ص 769.
(3) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 733.
(4) المرجع نفسه ، ص 763.

والدعوة إلى التأمل، وهذه النزعة التأملية لم تظهر عند القروي فحسب، بل ظهرت عند معظم شعراء العصبة الأندلسية [1] ، الذين يشكّلون حاضنة فكرية وثقافية رومانسية للشعر في البرازيل أو المهجر الجنوبي عامة.

الطبيعة في باب الأزاهير

لعل الدارس لهذا الباب من ديوان القروي يجد نفسه سعيداً أمام هذه اللوحات الفنية التي صورها لنا الشاعر، واختار لها اسم الأزاهير حتى يتناسب الاسم مع المضمون، والمتأمل للجو في هذه الأشعار لا يرى فيها خريفاً قط، فالعام عند القروي يقتصر على ثلاثة فصول، تبدأ بالغيث وتنتهي بالعناقيد، وهو هنا لا يصوّر الشتاء إلا بالصورة الإيجابية، فلا يصور السيول والعواصف والرعد والبرق لما لذلك من آثار عنيفة على النفس الإنسانية، وكذلك الربيع الذي – بطبيعته– لا يشتمل إلا على المناظر الخلابة والنسائم اللطيفة والروائح العطرة الفواحة، أما الصيف فلم يذكره إلا بكرومه وعناقيده، وترك حرّه وجفافه، وبهذا أكاد أضع خطوطاً أولية لنفسية الشاعر في هذا الباب، فمشاعره حية متفائلة مرحة.

إن السماء تظهر على شكل إنسان يسكب الدمع، فعندما يتقلب الجو وتظهر الغيوم السوداء لا يسقط المطر غزيراً عنيفاً، إنما يسقط كالطل خفيفاً ناعما، وهذا ليس حقيقة، بل هذه هي نفسية الشاعر التي تستريح لهذا الجو، أما من حوله فإنهم يغطّون رؤوسهم بالمظلات خوفاً من المطر، وفي المقابل فإن شاعرنا يطيب له أن يظلل رأسه بالسحاب، فيقول:

وإذ يكفهرّ جبين السماء ... وتسكب أجفانها الدمع طلا
وتنشر فوق الرؤوس المظلا ... ت لم أرض غير السحابة ظلا
كذا كنت أعشق خوض الجداو ... ل طفلاً ، فهل عدت يا أمّ طفلا[2]

وبعد هذا الجو الماطر ينظر الشاعر إلى جو لبنان وما وصل إليه بعد الشتاء،

([1]) ينظر محمد، نعيمة مراد: العصبة الأندلسية، هجرة الأدب العربي إلى أمريكا الجنوبية، ص 157–168.

([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 835.

فالغزلان منتشرة، وفي كل منظرٍ خلاب يظهر صباح باهر، وغابات الأرز والرياض الميلئة بالطيور، تارة ترى أغصانها شعارات للسلام، وتارة تراها مخصصة للرماح، فيقول:

من كل كرسي تطل غزالة وبكل منظرة يلوح صباح
غاب من الأرز النضير وروضة للحر فيها زأرة وصداح
اعوادها سعف السلام فإن دعا داعي الحمى فقواضب ورماح[1]

ولشدة تفاؤل الشاعر في هذا الباب يرى الطبيعة على غير ما هي عليه في الواقع، وهذا نابع من تجربته الحياتية في فترة كتابة القصيدة، فيرى وحوش الغاب تستأنس للأغاني، والريح تخفق بالجنان والأعشاب في الحقول تظهر الزهور البيضاء كأنها تبسم عن جمان، ولم ير الشاعر شيئاً عابساً إلا الدخان، فالطبيعة كلها فرحة سعيدة في هذا الفصل من العام، يقول:

رأيت الوحش يأنس للأغاني وصَدْرُ الريح يخفق بالجنان
وعشب الحقل يبسم عن جمان ولم أرَ عابسا إلا الدخان[2]

أما قريته فيناديها على أنها جنة مليئة بالطيور والحساسين وأهمها الهزار الذي يضفي بالحانة الكثيرة أصواتاً عذبة على هذه الجنة، فيقول:

بربارتي بربارتي يا جنة الأطيار
كم فيك من حسونةٍ كم فيك من هزار[3]

وحين يرى الحبقة التي زرعتها أمه أمام بيته في البرازيل وكانت نضرة جداً ، يتذكر صباه في لبنان، فيغلبه الحنين، وتنطلق عيناه بالدمع ولسانه بالشعر قائلاً:

قد كنت مثلك أيها الحبقُ لي منظر حلو ولي عبقُ
تهفو إلى عيون من نظروا وتهيم بي أرواح من نشقوا
فقد كان لي ورق ولي زهر واليوم لا زهر ولا ورقُ
بل كنت كالحسّون مسرحه بين النجوم وعشه الأُفقُ

([1]) المرجع نفسه ، ص 844.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 809.
([3]) المرجع نفسه ، ص 892.

إن صـــاح فـــي أعـــواده طربـــاً خلَت البيـــوت وغـــصّت الطـــرقُ
واليوم زقزقتـــي الأنـــين وأجـــ ـــنحتي الحنين ومهـــدي الارق[1]

فقد كانت هيئة شاعرنا جميلة حلو المنظر طيب الرائحة، وكان يشبه الحسون الـــذي يحوم بين النجوم ويحلّق في الآفاق بفكره وخياله، أما عندما كبر به العمر، فلا تسمع منه إلا الأنين، ولا ترى منه إلا الحنين، فلا يستطيع النوم.

وعندما يخرج ذات يوم إلى الكروم يخلّده بين أبيات ديوانه، لم يعش يوماً مثله طيلـــة حياته، عناقيد العنب دانيات في الكروم التي تجوّل بها في ذاك اليوم، قطف منها الكثيـــر وملأ السلال وفي لحظات الأكل – أكل العنب – يشبه الشاعر أكل الإنسان للعنقود الـــذي قطف عن أمه برضاعة العسل من طفل رضيع فُطم عن أمه، فيقول:

رُب يوم فـــي (كَلَـــدْسِ) عبقـــريّ لم تلـــد مثلـــه الليـــالي الخـــوالي
دانيـــات فيـــه قطـــوف الأمـــاني حاليـــات فيـــه طـــروس الأمـــالي
كم قطفنا في الكـــرم ســـرة عنـــ ـــقود وملنا على مهـــود الـــسلال
يرضع الشهد شيخنا مـــن رضـــيع قد فطمناه عن صدور الـــدوالي[2]

وأخيراً يصل شاعرنا إلى البحر، ويقف على الميناء فتتحرك لواعج الحنـــين للـــوطن –عنده– كلما رأى سفينة مسافرة، فيقول:

جمالك يا ميناء (سنطسَ) أشـــجاني وحرّك بالذكرى سواكن أشـــجاني
فما أبصرتُ عيناي فيـــك ســـفينة على سفر إلا تذكرت أوطـــاني[3]

وبهذا ينتهي الباب الأخير من ديوان القروي، جاءت فيه الطبيعة ناعمة سلسة لطيفة، لم يبالغ فيها مبالغته في باب (زوايا الشباب) فقد كان واقعياً جدا في استخدامه العناصـــر المتنوعة، وقد ركّز على جو الربيع أكثر من غيره، وهذا يفسر لنا سبب تسمية هذا الباب بالأزاهير.

([1]) المرجع نفسه ، ص 883.
([2]) الخوري ، رشيد سليم : ديوان القروي ، ص 905.
([3]) المرجع نفسه ، ص 834.

قائمة المراجع

أولاً–الكتب:

1- أنيسن إبراهيم وآخرون: **المعجم الوسيط**، ط2، القاهرة، د.ن، 1972م.

2- بلبع، عبد الحكيم: **حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق**، مكتبة الشباب، مصر، 1974م.

3- الخوري، رشيد سليم: **ديوان القروي**، مطبعة صفدي، سان باولو، البرازيل، 1952م.

4- داوود، أنس: **التجديد في شعر المهجر**، دار الكاتب، القاهرة، د.ت.

5- = = : **الطبيعة في شعر المهجر**، الدار القومية، القاهرة، د.ت.

6- الدقاق، عمر: **شعراء العصبة الأندلسية في المهجر**، دار الشروق، بيروت، 1973م.

7- زلط، عبد الرحيم محمود: **العروبة في شعر المهاجر الأمريكي الجنوبي**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1972م.

8- صيدح، جورج: **أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية**، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م.

9- محمد، نعيمة مراد: **العصبة الأندلسية**، هجرة الأدب العربي إلى أمريكا الجنوبية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1977م.

10- ابن منظور، **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، 2003م.

11- مكتب التدقيق اللغوي: **الشاعر القروي**، الأعمال الكاملة، شعر، حبروس برس، طرابلس ، لبنان، 1992م.

12- الناعوري، عيسى: **أدب المهجر**، دار المعارف، القاهرة، 1959م.

ثانياً – الدوريات:

1- جحا، فريد: رحيل آخر نسور الأدب المهجري، **الموقف الأدبي**، العدد (194)، 1984م.

2- الراوي، حارث طه: الشاعر القروي، **العربي**، العدد (13)، كانون الأول، 1959م.

3- النادري، محمد أسعد: القروي شاعر العروبة، **دراسات عربية**، العدد (1) السنة الرابعة والثلاثون، تشرين الثاني، 1997م.